الشعر في عصر الموحدين موضوعاته وخصائصه

الشعر في عصر الموحدين :

ترجع دولة الموحدين (٥٢٤ هـ / ١١٢٩م – ٦٦٧هـ / ١٢٦٨ م) في نشأتها الى قبائل المصامدة ، وقوام دعوتها :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالتوحيد على طريقة الأشاعرة من تأويل المتشابه من آيات القرآن والحديث ومن أجل ذلك سُموا الموحدين .

ويرجع الفضل في تكوين دولة الموحدين إلى رجل ينتسب إلى آل البيت عليهم السلام يدعى **محمد بن تومرت** نشأ في جبل السوس بالمغرب الأقصى في قبيلة مصمودة ، طلب العلم بمدارس المغرب ثم شد رحاله إلى بغداد ليلتقي بالعلماء والأدباء في بداية القرن السادس الهجري و منهم الإمام الغزالي الذي أخذ عنه طرفاً من العلم في المدرسة النظامية ، وعندما عاد محمد بن تومرت إلى المغرب شمّرَ عن ساعديه لدعوة الناس إلى التمسك بأصول الشرع وكان يتمتع بالفصاحة والبيان والورع والتقوى .. كلّ هذه الصفات وغيرها كان لها الأثر البالغ في نفوس أتباعه ، ومات ابن تومرت سنة ٥٢٤هـ بعد أن أوصى بالإمارة من بعده إلى **عبد المؤمن بن علي** ، وبايعه الموحدون وتلقب بأمير المؤمنين وحمل راية الجهاد ، وتولى الحكم بعده ابنه **أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن** و دام حكمه من سنة ٥٥٨هـ – ٥٨٠ هـ ، وبلغت دولة الموحدين في عهده أوج عظمتها ، **ومن محامد الموحدين أنهم شجعوا العلوم والآداب** ، إذ استقدموا العلماء والفلاسفة وأكرموا وفادتهم وشجعوهم على التأليف كما أنهم عنوا بالعمارة والحضارة .

كانت سياسة الدولة الموحدية تقوم على أساس إطلاق حرية البحث والتفكر على النقيض مما كان سائداً في عصر المرابطين ، فمعظم أمراء وملوك الدولة الموحدية كانوا علماء وأدباء ، فكان محمد بن تومرت أكثر تشجيعاً للناس على طلب العلم والمعرفة والإبداع ، وكان عبد المؤمن بن علي من أبرز علماء عصره وكان يجمع حوله العلماء والشعراء من أرجاء العالم الإسلامي فيشملهم برعايته تشجيعاً لهم ، والخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان مثل من سبقه يشتهر بحفاوته لعلماء عصره فضلاً عن كونه أديباً وشاعراً مجيداً ، وفقيهاً متمكناً و حوله طائفة كبيرة من العلماء والأدباء من أمثال ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن زهر الأندلسي وعلماء الطب والفلسفة والأدب في المجتمع ..

ويمثل الأدب في دولة الموحدين امتداداً لنزعة التقليد التي شهدتها أجناس الأدب وقد تعود أسباب ذلك التقليد إلى:

١- التقليد شأن عام في شؤون الحياة في ذلك العصر في السياسة والاجتماع والأدب ، لأن عصرهم كان ساكناً هادئاً والحكم وراثياً والمجتمع شبهَ قبلي .. الأمر الذي انعكس على الأدب وفنونه .

٢- كان أدباء الأندلس يُجِلّون أدباء المشرق بوصفهم تجارب نادرة يتوقفون للاقتداء بها ويجتهدون في السير على منوالها ، فالنحوي الأندلسي البارع كان يلقب بسيبويه الأندلس ، والشاعر المجيد بمتنبي الأندلس أو بحتري الأندلس وغير ذلك ،و **من أهم شعراء عصر الدولة الموحدية** :

ابن الجنان الأنصاري الاندلسي

(ت ٦٤٨ هـ) غلب على موضوعاته شعر المديح النبوي ، ولُقّب بالأنصاريّ لأنه تصدر شعراء عصره بمدح النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام ، ومناصرته ، وموضوعاته الشعرية هي : النبويات والإلهيات ، والأخوانيات ، والرثاء ، ونستطيع القول إن النبويات والإلهيات شغلا نصف ديوانه ، وهما يأتيان متصلين اتصال ركني شهادة المسلم ، والشاعر بهذا يُعدّ من كبار عصره ذوي النزعة الإسلامية الخالصة التي كرّسها الشاعر في الموضوعين السابقين ، وإن لم يهمل الموضوعات الأخرى .

ويسلس قياد الشاعر في المناسبات الإسلامية كالحج وصوم رمضان ، فالحج كان ميداناً لإطلاق المشاعر من عقالها وبث معاني اللوعة والشجون والشوق لزيارة بيت الله الحرام ، كما في قوله :

يا حاديَ الرّكب قف بالله يا حادي وارحم صبابة ذي نأيٍ وإبعادِ

ما ينبغي عنك إلا أن تصيخ له سمعاً لتسأل عمّن حلّ بالوادي

بين الجوانح نارٌ للجوى وقدت فإن قدرتَ فأخمدْ بعض إخماد

فإذا نزلت به نازلةٌ ، تجالد واستسلم لله سبحانه وتعالى استسلاماً تامّاً ينبىء عن حسن ظنّه به ، وثقته بنصره لعباده ، وهذا شأن المؤمن في الصبر على البلاء ، وهذه المعاني نجدها في شعر النبويات و الإلهيات ، كما في قوله :

سأصبر حتى يُنجز الله وعده ولا بدّ للرحمن أن يُنجز الوعدا

وما زال لُطفُ الله يُفرِج أزمةً إذا استصعبت عِقداً أو استحكمت شِدّا

ابن سهل الاشبيلي (ت ٦٤٩ هـ)

يعد من شعراء أشبيلية الذين برزوا مبكراً في مرحلة الطفولة وقد نظم شعره بعمر العشر سنوات ، وكتب في الموضوعات التقليدية وله آراء في الشعر والنقد ورسائل في الأدب ، وقد غلب الشعر السياسي على شعره ، و توفي إثر غرق مركبه في البحر ، أشهر موضوعاته شعر الغزل في والمديح إذْ يشكلان ثلاثة أرباع ديوانه ، وكان يتناول المعاني الصعبة بألفاظ سهلة ، يقول :

عليـلٌ شـاقه نفَـسٌ عليـلُ فجـاد بدمعـه أمـلٌ بخيلُ

أعدَّ الصـبرُ للأشـواق جيشـاً فـأدبر حـين أقبلـت القبـولُ

ولم يبرع ابن سهل في القصيد فحسب بل نظم وأكثر النظم في الموشحات ، وقد ذاعت موشحته التي مطلعها :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلبَ صبٍّ حلّه عن مكنسِ

فهو في حَرٍّ وخفقٍ مثلما لعبت ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

الرصافي البلنسي (ت ٥٧٢ هـ)

و هو أبو عبد اللة محمد بن غالب الرفاء الأندلسي الرصافي البلنسي ، ولد في رصافة بلنسية ، وإليها ينسب ، وخرج به أهله من الرصافة إلى مالقة وكان عمره عشر سنين ، وفي مالقة بدأ يتلقى علومه وآدابه ، وقد تفتحت مواهبه الشعرية مبكراً ، فلما جاء سلطان الموحدين عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس ونزل بجبل طارق واستدعى الشعراء ، ألقى الرصافي بين يديه قصيدة تتألف من ثلاثة وستين بيتاً مطلعها :

لـو جئتَ نـارَ الهدى مـن جانـب الطُّور قبسـتَ مـا شـئتَ مـن علمٍ ومـن نـور

تفيض أشعاره بالروح الدينية وتكثر فيها الإشارات التاريخية ولم يكن حينها قد جاوز العشرين عاماً ، انتقل الى غرناطة واستوطنها وكان واليها آنذاك محمد بن سعيد ، كما مدح الخلفاء والأمراء بدررٍ من شعره ، ثم زهد في الدنيا وانصرف عن التكسب بالشعر ، ومع ذلك بقيت عطايا الأمراء والأعيان تصل إليه ، وفي سنة ٥٧٢ هـ توفي دون أن يتزوج ولم يتجاوز عمره السادسة والثلاثين عاماً.

سمات شعره وخصائصه الفنية :

١- كان شاعراً كبيراً مشهوراً في زمانه ، امتاز شعره بالقصائد الطوال والمقطعات ، وكان من المنقحين لشعره والمجودين فيه

٢- جاء شعره عذباً رقيقاً ونرى في شعره تقليداً ظاهراً للشعراء المشارقة حتى لُقِّب بابن رومي المغرب في غوصه في المعاني وتوليد بعضها من بعض .

٣- كان محلقاً في آفاق الخيال مقتنصاً أجمل الصور الشعرية .

أغراضه الشعرية :

نظم في فنون الشعر المتنوعة ، ومن فنونه الشعرية المدح ، والرثاء ، ووصف الطبيعة ، ويغلب على شعره النسيب والشكوى والحنين إلى وطنه بلنسية حتى لُقب بالرصافي البلنسي ، وهو شاعر الدولة الموحدية بلا منازع ، فقد كان على قدر عالٍ في قوله الشعر ، وامتلك براعة فائقة في مدح الخلفاء والأمراء حتى أصبح مداحاً في بلاط الملوك والأمراء ، ولعل السبب يرجع لأمور تتعلق بشخصية الرصافي وتربيته التي جعلته في هذا المقام صاحب

(غيرةالجاهلية) التي تنأى به عن تسخير فنه وإبداعه في سبيل التكسب بالشعر ، فقد نأى بقريحته الفياضة عن التكسب او الابتذال ، مؤمناً بمدح الملوك لأحقيتهم بهذ المدح من جهة ، ومرحباً بمقدم دولة جديدة من جهة ثانية وهو بذلك يحذو حذو أستاذه الشاعر الكبير ابن خفاجة..ومن ذلك قوله :

يقـول أُنـاسٌ لـو رفعـتَ قصـيدة لأدركـتَ حتماً في الزمان بها أمـرا

ومــن دون هــذا غــيرةٌ جاهليــة وإن هـي لم تلتـزم فقـد تُلـزمُ الحـرّا

متـى أرسـلتْ أيـدي الملـوك هباتِهـا ولم يوصـلوا جاهاً ولم يُجزلـوا ذخـرا

وكان قانـعاً في حياته ، متـحدثاً عن فضـل القناعة والرضا ، وداعياً إلى الرفعـة وصـون النفس من الذلّ والهـوان حين قال :

صـون الفتـى وجهـَه أبقـى لهمّتـه والــرزقُ جـارٍ علــى حــدٍّ ومقــدار

قنعـتُ وامتـدّ مـالي فالسـماءُ يـدي ونجمهـا درهمــي والشــمسُ دينــاري

كما أبدع الرصافي في فن الوصف الذي ظهرت فيه براعته الفائقة ، فيصف الديار ويتشوق إليها ، وهو بذلك يمزج بين الغربة والحنين لبلدته ووصفه إياها بلوحة شعرية مفعمة بالاستعارات قائلاً :

خليلَـيَّ مـا للبيـد قَـد عبقَـت نشـرا وِمـا لـرؤوس الركـب قَـد رُنحَـت سُـكرا

هلِ المسكُ مفتوقاً بمدرجة الصِّبا أَم القَــومُ أَجــروا مــن بلَنســية ذكــرا

خِليلَــيَّ عوجــا بــي عليهــا فإ نَّــها حـديثٌ كَبـرْد المـاء في الكَبـدِ ا لحَـرّا

بلنســيّةٌ تلك الزبرجــدةُ التي تســـــيلُ عليـها كلُ لؤلؤة نهـرا

كأنّ عروساً أبدع اللهُ حُسنها فصيّــرَ من شـرخ الشباب لها عمرا

كما عُرف الرصافي بثقافته الدينية الواسعة ولاسيما في المعاني ا لقرآنية ، وهذا ما وجدناه في شعره، ومعظم ثقافته الدينية مستقاة من قصة النبي موسى عليه السلام ، لنستمع إليه يقول:

لـو جئتَ نـار الهُـدى من جانب الطُّـور قبسـِتَ مـا شـئتَ مـن علـمٍ ومـن نـور

مـن كـلّ زهـراءَ لم تُرفَعْ ذؤابتُها لــيلاً لِســارٍ ولم تُشــببْ لمقــرور

فيضيةُ القدح من نور النبوَّة أَو نــور الهدايــة تجلو ظلمةَ الزُّور

حتى أَضاءت من الإيمان عن قبسٍ قـد كـان تحت رمـاد الكفـر ، مكفـورِ

الشعر في عصر بني الأحمر
(٦٣٥هـ / ١٢٣٧ م – ٨٩٨ هـ /١٤٩٢ م)

بعد أفول نجم الدولة الموحدية استطاع **محمد بن هود صاحب بطليوس** أن يمدّ نفوذه على بعض المدائن الأندلسية حتى صار ملكه يشمل بطليوس وأشبيلية وقرطبة ، ومرسية ، إلا أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، فقد دب الضعف في أرجاء الأندلس ، فقد كان حكامها في شغل عنها بتناحرهم على السلطة فيما بينهم ، حتى تعاقب على عرش غرناطة نحو عشرين ملكاً من **أبناء محمد بن يوسف وأحفاده** في ظلّ حروب طاحنة ونزاعات مستمرة على السلطة ، الأمر الذي مكّن الفرنجة من محاصرتهم بعد مايقارب ثمانية قرون من الفتح الإسلامي للأندلس ، فقد هاجم فريناند وإيزابيلا بني الأحمر وتمكنوا من الاستيلاء على المدن والحصون ، وهزموا المسلمين هزيمة مروعة ، وسقطت المدن الواحدة تلو الأخرى وآخرها غرناطة التي سقطت سنة ١٤٩٢م وكانت آخر معقل من معاقل الإسلام في الأندلس ، وسلّم أبو عبدالله آخر ملوك الأندلس مفاتيح المدينة إلى الفرنجة ، وعلى رأسهم فريناند قائلاً له : هذه المفاتيح هي آخر مابقي من سلطان العرب في أسبانيا خذها فقد أصبح لك ملكنا وأشخاصنا .

ويعد هذا العصر من أسوأ عصور الأندلس سياسياً ، مع أنه يعد في الوقت ذاته عصراً مزدهراً من الناحية الحضارية فقد شيدت قصور الحمراء ، كما اهتم الحكام بالآداب والفنون والعمارة وكانت الثقافة زاهية وحافلة بأعلام الفن والأدب .

ومن الأدباء **علي بن محمد بن الجياب** ، وهو كاتب وشاعر من أشهر كتاب الدولة النصرية ٦٧٣ هـ – ٧٤٩ هـ ، وكان راوياً ومحققاً وهو أستاذ **لسان الدين بن الخطيب** ، ومنهم أيضاً **ابن زمرك** آخر علم من أعلام الشعر في الأندلس في غرناطة، كذلك ابن الأحمر الذي عُرف عنه إلى جانب بنائه القصر المشهور أنه كان يعقد مجلساً عاماً تُرفع إليه الظلامات ويتواصل مع طلاب الحاجات وينشد الشعراء ، وتدخل إليه الوفود ، فضلاً عن محاورة أرباب النصائح ومشاورتهم في مجلس يحضره أعيان ا الحاضرة وقضاة الجماعة .

ابن زمرك ٧٤٣ هـ /١٣٣٣ م – ٧٩٦ هـ /١٣٩٣ م

أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد المعروف بابن زمرك ، أما نسبه فهو الصريحي ،وهو نسب يقول عنه ابن الخطيب في إحاطته : إنه شاهد على الأصالة ودليل على العروبية ، ولد ابن زمرك بغرناطة ولا تذكر المصادر عن نشأته سوى أنه كان محباً للعلم وأنه لازم حلقات التدريس

وعكف على تثقيف نفسه ، وتتلمذ على أيدي كبار الأساتذة ، في زمن كبّار أدباء غرناطة والمغرب ، وقد أحسن ابن زمرك الإصغاء وأحسن الدراسة ، وكان ابن زمرك رجلاً طموحاً لاتقف عقبةٌ أمامه في طريق الوصول إلى مايريد ، ولاشك في أن طموحه في الوصول إلى منصب الوزارة جعله شريكاً في قتل أستاذه ابن الخطيب فأصبح وزيراً بدلاً منه ، داخلَ ابنَ زمرك العجبُ بنفسه فاستبدّ برأيه واستعذب التآمر على الناس، لكن الغني بالله كان يحميه ، فلما توفي الغني بالله ، وخلفه ابنه ا لحاج يوسف الثاني سُجن ابن زمرك في المرية ثم عفا عنه وأعاده إلى الوزارة ، لكنه عاد إلى كيده وتآمره ، فاقتحم السلطان بنفسه بيت ابن زمرك وقتله ومن معه في داره سنة ٧٩٦ هـ /١٣٩٣ م .

شعره :

جمع السلطان يوسف الثالث شعر ابن زمرك وموشحاته في مجلد سمّاه" البقية والمدرَك من كلام ابن زمرك " ، ورغم ماكان به من الكيد إلا أنه كان ذكياً ، شائقَ الحديث حلو المعشر، خفيف الروح فيه بشاشة دائمة وحب للمداعبة ، فضلاً عن أنه كان شاعراً وجدانياً مجيداً ، وكان وشاحاً وخطيباً وناقداً وكان كلفاً بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة ، أما فنون شعره فأكثرها في المديح ومعظمها في مدح سلطان غرناطة وفي التهنئة والاعتذار ، وكان له شعر في المدا ئح النبوية ، والرثاء والوصف والخمريات والتصوف .

موضوعاته الشعرية :

نظم ابن زمرك في موضوعات متعددة تصدرها فن المديح ، لنستمع اليه وهو يمدح الخليفة الغني بالله قائلاً:

لك الخير يا مولاي أبشرْبعصمة عقدت مع الأيام في حفظها صلحا
وعافيةٍ في صحة مستجدة تجدد للدين السعادة والنجحا
ووجه التهاني مشرق متهللٌ وجو الأماني بعد ما غام قد أضحى

وقد ظهرت للناس منك علامة علامتك العليا تقول لنا صَحا

وقوله :

يا من تمد له الملوك أكفَّها تدعو الإله له بطول بقاءِ
أضحى ولي العهد نجلك صائداً شأنُ الملوك العليةِ العظماء

وله شعر في المديح النبوي أفصح فيه عن شوقه لزيارة قبر النبيّ الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام قائلاً :

إليك رسول الله دعوة نازحٍ خفوق الحشا رهنِ المطالع هيمانِ
غريبٍ بأقصى الأرض قَيّد خطوَه شبابٌ تقضّى في مراح ونسيان

يجِدّ اشتياقاً للعقيق وبانِه ويصبو إليها ما استجدّ الجديدان

وإن أومضَ البرقُ الحجازيُّ موهناً يُرددُ في الظلماء أنّة لهفانِ

كما نجد ديوانه حافلاً بفن الوصف ، فيصف الرحلة والجياد والوحش والطير وأنواع السلاح في القنس والطراد ضمن مايسمى بالطرديات، في لوحات مفعمة بالصور الحركية قائلاً :

هل ينفع الباع الطويل وقد غدت يوم الطراد قصيرة الأعمار

من كلّ منحفز بلمحة بارقٍ فاتت خطاه مدارك الأبصار

وجوارحٍ سبقت إليه طلابُها فكأنما طالبنه بالثار

سودٍ وبيض في الطراد تتابعت كالليث طارده بياضُ نهار

ترمي بها وَهْيَ الحنايا ضُمّراً مثلَ السهام نُزعن عن أوتار

وقد نُقشت أشعار ابن زمرك على جدران قصور الأمراء لتكون مثالاً حياً لشعر النقوش في الأندلس الذي حاول فيه ابن زمرك الجمع بين السمات الأسلوبية للشعر وجمال الخط و الكتابة ، عبر معاني المدح ، والوصف والفخر ودلالاتها الحضارية والاجتماعية ، وصياغتها بقوالب نقشية ترمز إلى فلسفة الجمال الشكلي التي كان لها حضور واضح في العصر الغرناطي بإطارها وهيئتها التي أفصحت بصيغة أو بأخرى عن ازدهار آلة العمران في غرناطة الأندلسية ازدهاراً واضحاً خالداً تشهد له الآثار الباقية حتى يومنا هذا ، فنشعر ونحن نتامل النصوص أننا أمام إبداع من نوع خاص ، سُلّط فيه الضوء على الناحيتين اللغوية والمعمارية ، لنتأمل أبياته التي نقشت في (فناء الريحان) داخل قصر الحمراء قائلاً :

تبارك من ولّاك أمر عباده فأولى بك الإسلام فضلاً وأنعما

فكم بلدة للكُفر صبّحتَ أهلها وأمسيتَ في أعمارهم متحكّما

فلو خُيّر الإسلام فيما يريده لما اختار إلا أ ان تعيش وتسلما

نسج ابن زمرك أبياته هذه بصياغة لغوية جميلة ودالة ، في قوالب نقشية واكبت ذوق العصر من جهة ، وحققت غاية الشاعر في إرضاء ممدوحه ، وعبقريته في أن تبقى أبياته تراثاً ناطقاً بنضجه الفني ، لنستمع إليه وهو يصف قاعة بني سراج (قاعة الأختين) ، وهي من أجمل قاعات قصر الحمراء ، يقول ابن زمرك :

أنا الروض قد أصبحتُ بالحسن حاليا تأمّلْ جمالي تستفدْ شرح حاليا

ولم نرَ قصراً منه أعلى مظاهراً وأوضح آفاقاً وأفسح ناديا

ولابن زمرك قصائد أخرى يصف قصر الحمراء وشعره يبدو وكأنه أنغام راقصة ومتدفقة ترقص على وقعها الزهور والنجوم وتفيض بالأخيلة والتشبيهات ، وقد نُقشت بعض أبيات ابن زمرك على جدران الحمراء لتكون جزءاً لاينفصل من زخارف القصر ، كما في قوله :

ولله مبناكَ الجميل فإنّه يفوق على حكم السُّعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متنزّهٍ تجد به نفسُ الحليم الأمانيا

وتهوى النجوم الزّهر لو تنبت به ولم تكً في أفق السماء جواريا

به البهوُ وقد حاز البهاء وقد غدا به القصرُ آفاقَ السماء مباهيا